الطرُق في بعلبك وضواحيها

بقلم الاثريّ الاديب ميشال افندي الوف

غنيٌّ عن البيان ما كان لبعلبكَّ من الخطارة في المدنيَّة والترقي في العمران . فقد كانت في سالف العصور المدينة المقصودة في سوريَّة لحسن هوائها وطيب مائها واستفحال العصبية الوثنية فيها اذ كان يؤمُّها كثيرون من اهل المعرفة والصناعة للعمل في ابنيتها العظيمة والوفٌ من الزوَّار لاقامة المناسك الدينيَّة فيها . تلك اسباب جعلتها في مقدَّمة المدن السوريَّة بالثروة وازدهار التجارة وتقدُّم الصناعة . بل أنَّها وهي قائمة في ارضٍ اختصَّتها الطبيعة بحسن التربة وغزارة المياه وسلَّطتها على سهلٍ فسيح ترويه الجداول الوفيرة فنُبتت احسن الحبوب وأطيب الاثمار تحفُّهُ الجبال الشاهقة المزيَّنة باحراج الارز والسرو والشربين والسنديان والدلب والمُلول آويةً اليها القطعان العديدة من الغنم والمعز حتى أنَّها لتلك الارض التي تدرُّ لبنًا وعسلًا مفيضةً الخيرات والبركات على اهالي هذه السهول . كل هذا وبعلبكُّ في متوسطٍ من الارض بين امَّهات المدن القديمة العامرة يطوي الركبانُ المسافة منها واليها بيومين من طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا ودمشق وحمص ومعلولا وبعبدا . فلا غروَ أن تكون نقطةً مهمةً للمواصلات ومحطةً تتزاحم فيها القوافل وتتسابق اليها رجال الجد والاقدام واهل التجارة من سائر البلدان مصدرين منها انواع تجارتهم الى بعيد الاقطار

كل هذه اسباب تزيدنا تثبُّتًا في قِدَمية بعلبك وإن خَفيَت عن نواظرنا اثارُ اهليها الاقدمين . فهل لم يفطن الفينيقيُّون لهذا الموقع البديع وقد كانوا رجال اتكدّ والعمل والقابضين على اعنَّة الاخذ والعطاء في سائر الامصار ؟ لا لعمري فانَّ هذه الاسباب والاسم الفينيقي الذي نُعتت به بعلبكُّ لأوضح دليل على كونها من اقدم المدن وانَّ الامم الشرقيَّة اتخذتها طريقًا للتجارة بين بلدانها والمدن الواقعة في وادي العاصي وعلى ضفاف الفرات . ولو لم تكن بعلبكُّ اقرب موصلٍ لهذه البلاد لاتخذت السكك الحديديَّة طريقًا اخرى في غير سهلها ونفذت منهُ الى الشهباء وبلاد الفرات

*

اذا كانت بعلبكُ في صِلةٍ دائمةٍ مع غيرها من المدن الكبرى وكان بينها وهذه سكك عامرة مُمهَّدت لتخفيف العناء . اما الطُرُق النبيقيَّة فلا نظن انها كانت غير تمهيد ما استوعر من الارض اذ لا دليل لنا عمَّا كانت عليه . ولكن في العصر الروماني لم يألُ حكام البلاد جهدًا من توثير الطرق وفرشها بالحصباء والرمل مغموسةً بالكلس حتى تقوى على عوامل الطبيعة سنين طوالًا وتحمل الى هذه المدينة ما كانت تستلزم اعمالهم الخطيرة فيها حملهُ من معدَّات البناء ولوازم الفعلة وصنوف البضائع

بيد ان كل هذه الطرق عفى اثرها في هذا الانحاء ولم تبقِ لها الايام رسمًا شأن كل شيء يعتوره الاهمال . ولكنَّ حضرة الباحث المدقق الاب هنري لامنس اليسوعي عثر على اثار الطريق الرومانيَّة « التي اصطنعوها بين جبيل وبعلبك وهي تمرّ في اعالي لبنان فوق العاقورة وهناك شِعبٌ بين جبلين تخرقهُ الطريق فتفضي الى بركة اليشونة ثم تتسع وتمتدُّ فتصبح من احسن السكك الجبليَّة واتقنها لكن آثارها في منعطف لبنان الشرقي دارسة . ولعل هذه الطريق سبقت عهد الرومان وما لا مشاحَّة فيه ان الرومان تولوا اصلاحها وتوسيعها كما يؤخذ ذلك من كتابة لدوميطيانوس قيصر في آخر القرن الاول للمسيح وُجدت عند المكان المسمَّى بدرَّاجة مار سمعان » (١

فان كان وجود هذه الطريق امرًا واقعيًّا نظن بانها كانت الطريق التي نقل عليها الرومان تلك العُمُد الكرانيتيَّة الكبيرة التي كانوا يأتون بها من اصوان مصر على مراكبهم فيرمونها على ساحل جبيل ثم يحملونها على عجلات متينة تجرُّها الثيران على هذه الطريق حتى بعلبك وهنا كانوا يزينون بها المعابد (٢

---

١) المشرق . السنة الثانية (ص ٤٣٩)

٢) باحثنا مؤخرًا حضرة الاب هنري لامنس في امر هذه الطريق فوجدناهُ يشكُّ الآن بوجودها بين جبيل والعاقورة وامكان توغلها تلك الجبال الشاهقة لوعورتها وشدة انحدارها وقد رأى بان الكتابات هناك لا تشير الَّا الى حدود بعض الاراضي . ويذهب الى وجود طريق من صور الى بعلبك مارةً في هضاب لبنان الجنوبيّ ومخترقةً سهل البقاع وانما لربما هي التي كان ينقل عليها الرومان الاعمدة الغرانيتيَّة الى هياكلهم في بعلبك

(المشرق) كان مرفأ صور اعظم المرافئ التي تحطُّ عندها السفن فمن هناك كانوا ينقلون العواميد من جنوبي السهل مجتازين بالسكك المطروقة وليس لدينا دليل قاطع على وجود طريق رومانيَّة في هذه الجهة من سهل البقاع (ه . ل)

وقد اسعدنا الحظ بان عثرنا على دليل آخر للطريق الرومانيَّة التي كانت تصل بعلبك بحمص المدينـــة التي كانت كما هي الآن ثغر البريَّة ومَوْرِد القبائل المخيمة في تلك السهول الفسيحة المتصلة بتدمر والضارية حتى بغداد

فاننا بينما كنَّا في شهر تموز نمعن النظر في حجارة مبعثرة ومكتشفة حديثًا في ارض تدعى تلَّة الدير شرقيّ قرية جبُّولة الواقعة شمالي محطة اللبوة وعلى مسافة عشرين دقيقة منها رأينا هناك رسومًا مسيحيَّة منها بلاطة واسعة من حجر الكدان وعليها رسم صليب كبير بيزنطي ثم بضعة قطع اعمدة وقواعد وحجر كبير كأنَّهُ مقطوع من عمود قطرهُ نحو المتر ونصف ومحفور بـــهِ جرن . وهناك ايضًا ابنية من حجر الكدان مفسوسة بالكلس والقصرمل على شكل دائرة فارغة في وسطهـــا . وبين هذه الآثار ركيزة عموديَّة طولها ١٧٠ سنتيمترًا وقطرها ٤٤ سنتيمترًا وقاعدتهُ مربعة وهي من نفس الحجر وفي اعلاه اثار كتابة لاتينيَّة محيت قصدًا لجهل حفَّارها قواعد اللغة وجُدِّد نصُّها تمامًا بجانب الكتابة الممحية عبارة عن خمـــة سطور طولها معًا ٤٥ سنتيمترًا وعرضها ٢٨ . واحرفهـــا جميلة طول الحرف خمس سنتيمتر وهذا نص الكتابة (١ :

١ لسيِّدينا فلافيوس فالاريوس	DDNNFLVALERIO
٢ قسطنطيوس ثم	CONSTANTIOET
٣ غالاريوس فالاريوس	GALERIOVALERIO
٤ مكسيميانوس القيصرين	MAXIMIANOCAESS
٥ مستمرة يوليا اوغسطا هليوبوليس	CCLIVLAVGHEL
٦ (الميل) ١٧	XVII

١) وهذه قراءة الكتابة بتمامها D(ominis) n(ostris) Fl(avio) Valerio Constantio et Galerio Valerio Maximiano Caes(aribus) . C(o)l(onia) Jul(ia) Aug(usta) Hel(iopolis) XVII هذه الكتابة كما ترى تدلّ على الحجر الميليّ السابع عشر من بعلبك وهي مكتوبة باسم القيصرين كاورس ابي قسطنطين الكبير (ويدعى باسم مرقس فلافيوس فالاريوس) وغالاريوس (ويدعى قايوس فالاريوس مكسيميانوس) وكان كلاهما شريكًا في الملك لديوكلطيانوس اما تاريخ الكتابة فمجهول يتراوح بين ١ آذار ٢٩٣ التي فيها نال قسطنطيوس وغالاريوس رتبة القياصرة و١ ايار ٣٠٥ حيث رقيا الى رتبة اوغسطوس باستعفاء ديوقلطيانوس وهذا الحجر الميلي هو الثاني من جنسهِ الذي وجد في الطريق بين بعلبكّ وحمص . وكان الاثريان پاردريزه وفوسّه (Perdrizet et Fossey) وجدا الاول في عرجون على بعد ثلاثة كيلومترات من تلّ ابي مندو في شماليها الشرقي وهو من التاريخ عينه لكنَّ فيهِ اسماء اربعة قياصرة . وقد ذكر في هذا الحجر اسم

فهذه الكتابة تنبئ عن بناء طريق رومانية في زمن الامبراطور كاور قنسطنطيوس وشريكه في الملك غالاريوس مكسيميانوس وان في ذلك المكان كان الميل السابع عشر من مدينة هليوبوليس المشرفة باسم جوليا اوغسطا

فمن هذا الحجر الميلي يُستدلّ بان بناء هذه الطريق او تجديدها حدث بعد ان استقل قنسطنطيوس وغالاريوس بالملك واجبر القيصر ديوقلطيانوس وشريكهما الرابع مكسيميانوس على التخلي عن العرش القيصري في نحو السنة ٣٠٥ للمسيح

ولا يبعد اذًا ان هذه الطريق كانت تمرّ في هذه السهول الى حمص محاذيةً عن قريب نهر العاصي . ولربما كان يتشعب منها طريق اخرى الى بلاد عكار ومدينة طرابلس فقد اكّد لي بعض سكّان هذه الجهات بانه يشاهد في ارض تابعة لقرية راس بعلبك تدعى بارض « شوكان » اثار طريق قديمة درستها صروف الزمان حتى تكاد اثارها لا تظهر الّا في بعض الاماكن التي يشاهد فيها حجارة مرصوفة الواحدة بجانب الاخرى فكأنها حفافي تلك الطريق . وقد يُعثر من مسافة الى أُخرى بمثل ذلك حتى الجسر القائم اليوم على العاصي تحت قرية الهرمل . ومن هناك تنساب الطريق الرومانية في السهل مقاربةً السكة السلطانيّة المستعملة اليوم حتى تتصل بحمص

اما طريق طرابلس فلا يبعد انها بعد ان تقطع جسر العاصي تنفصل عن طريق حمص وتمرّ بوادي خالد تحت قرية اكروم ثم تتناول الطريق التي كانت بين حمص وطرابلس حيث هي الآن طريق العربات . وقد ذكر لي كثيرون انهُ لمّا بُنيت طريق العربات هذه كان يُعثر في اقسام كثيرة منهُ على اثار الطريق الرومانية القديمة . فاذا تحقق والحالة هذه وجود الطريق الرومانية بين بعلبك وطرابلس نرجح بانها كانت هي الطريق التي استعملها الرومان لارسال العمد الغرانيتية من هذه الميناء البحرية الى مدينة الشمس . فانها لأقرب لبعلبك وأسهل من طريق يُفترض امتدادها من صيداء

بعلبك وعدد الحجر . وقد وجد حضرة الاب س . وترقال حجر ميلًا ثالثًا على مسافة ميل واحد من تلّ نبي مندو في شرقي مع ميلة الى شمالي الشرقي

واعلم انّ في هذه الكتابة قد ضُوعفت بعض الحروف كالحروف D و N و S وهذا موافق لقواعد الكتابات الرومانيّة الاثريّة التي يضاعف في الغالب الحرف الحجائي الاخير او يثلث او يربّع على حسب عدد الاشخاص المذكورين فلمّا كان الكلام هنا عن سيّدين وقيصرين ضوعفت الحروف D و N و S